«أوروزيوس» والمغرب الأقصى القديم

المصطفى مولاي رشيد
كلية الآداب ــ الرباط

ظهر أوروزيوس، عند تأليفه سنة 416 ــ 417م للتاريخ العالمي المعنون بـ : **ضد الوثنيين** *Contre les Païens*، واعيا كل الوعي بضرورة الإلمام ببعض المعلومات الجغرافية لفهم مسيرة الأحداث، وبالتالي سلك نفس المنهج المعتمد من طرف مؤلفين سبقوه أمثال هيرودوت، وبوليبيوس، وسالوست، واميان مارسولان. ويتجه المؤلف في هذا المضمار نحو القاريء في الباب الأول من الكتاب الأول(1) قائلا : «لما عزمت إذن على أن أقص، طبقا لتأهيلي في جمع المستندات، مصائب الجنس البشري منذ نشأة العالم (...) إلى يومنا هذا، ولما عزمت أيضا على إظهار بشرية ــ كما لو شوهدت من أعلى مرصد ــ منقسمة إلى فرق متعادية، ضحية الآلام ومشتعلة بنار الجشع، اقتنعت أنه من الضروري تسليط الأضواء في البداية على العالم المعمور نفسه، مقر الجنس البشري، كما سبق للقدماء أن قسموه إلى ثلاثة أجزاء وحدَّدوه في إطار نواح وأقاليم. وسيكون من السهل على الباحثين، عندما تعرض عليهم الكوارث الخاصة بالحروب والأوبئة أن يكونوا، لا على جهل بالأحداث والتواريخ فحسب، بل بالأماكن أيضا».

سنلاحظ في هذا السياق التقديم الجغرافي للتواريخ، في الباب الثاني من الكتاب الأول. فما هو نصيب موريطانيا الطنجية من هذا التمهيد العام ؟ أشار أوروزيوس إلى هذا البلد الأخير في إطار رؤية شمولية للعالم المعمور ومبادرة للتعريف بالقارات. وتظل فكرة استمرارية العالم المأهول المحاط بالبحر المحيط حية عند المؤلف. أما ليبيا فتظهر مرتبطة بأوروبا بشكل ضيق. ولربما يكمن في ذلك السبب الذي تبدو

(1) وبالضبط 17 ــ 14 ــ 1، I من مؤلَّف. *La Géographie d'Orose* (ed. Y. Janvier), Paris, les Belles Lettres, 1982.

به إفريقيا صغيرة في كل شيء : في هيأتها وفي عدد سكانها، لأن طبيعتها افتقرت إلى مجال واسع واتسمت بقحولة أراضيها[2]. تطابق الحدود الشرقية لهذه القارة، بداية الأراضي المصرية ومدينة الإسكندرية على شاطىء البحر الكبير[3]. أما حدودها الغربية، فهي مماثلة بالنسبة لحدود أوروبا، أي ما يناسب مصب مضيق قادس[4]. ووقع التعريف بالجنوب الإفريقي، طبقا لموروزيا Maurusie عوض البلاد المصرية، مما يشير إلى القصور الخاص بالمعالم الجغرافية للناحية الجنوبية من الشاطيء الشرقي الليبي. ويؤكد أوروزيوس هذه الظاهرة معلنا أنه «يحد جنوبها الأقصى بجبل الأطلس وبالجزر المسماة بالسعيدة»[5]. فهل بالإمكان تصور خريطة للمغرب القديم في هذا المضمار ؟ سيكون الجواب عن مثل هذا التساؤل إيجابيا، إذا ما استندنا إلى المعطيات الجغرافية المقترحة من طرف هذا المؤلف. وبالتالي فإن مقتطفا تركيبيا، قد يقودنا نحو هذه المبادرة، فعلا، «توطن موريطانيا الطنجية في آخر ناحية من إفريقيا. يحدها شرقا نهر المالفا Malva، وشمالا بحرنا إلى خليج قادس Gades الذي يضيق بين الرأسين المتقابلين : أبينا Abenna (سبتة) وكالبي Calpe (جبل طارق)، وغربا جبل الأطلس والمحيط الأطلسي، وبالجنوب الغربي جبل هيسبريان Hesperien، وأخيرا تعيش بالجنوب قبائل الأطولول Autololes المسماة حاليا بالغالول Galaules المجاورين للمحيط هيسبريان Hesperien»[6]. لا يدلي أوروزيوس بأية إشارة خاصة بقلب الولاية الطنجية التي يفصلها نهر المالڤا[7] عن الموريطانيتين المجاورتين : السطيفية والقيصرية. ويبدو من العسير تطابق هذا النهر مع المولوليشا Mululecha أو ملوية الحالية. لقد سبق للجغرافي بطليموس أن أسند إحداثيات مختلفة لمصبي النهرين. اللهم إلا إذا دلت المالڤا في ذهن أوروزيوس على وادي كيس الحالي، الأمر الذي سيبعد الحدود

---

(2) نفس المصدر، 86-2، I.

(3) نفس المصدر، 8، 2، I.

(4) نفس المصدر، 10، 2، I.

(5) نفس المصدر، 11، 2، I.

(6) نفس المصدر، 94، 2، I.

(7) نفس المصدر، 93، 2، I.

الشرقية للطنجية نحو الشرق، في اتجاه خط الطول 11°40′، الذي هو بمثابة خط الحدود الذي سبق للجغرافي الإسكندري[8] أن أشار إليه. تلقى الجزء من الشاطيء الفاصل بين المالڤا والأعمدة اسم بحر موريطانيا، هذا البحر الذي حُدَّ شماله الشرقي بجزر الباليار Baléares[9]، وتقع بالشمال الغربي نهاية أوروبا (...) وبالضبط الجهة القريبة من جزر قادس، حيث تتيسر زيارة أعمدة هرقل وينساب في آن واحد مد المحيط في مصب البحر التيرينياني[10]. ويلاحظ على الخصوص مع أوروزيوس تأكيد فكرة التماثل بأقصى الغرب من العالم المعمور. قد لا يتعلق الأمر فقط بجعل الشاطيء الشمالي المغربي على صلة بجزر الباليار وكاليي وأبينا وضفتي مضيق الأعمدة، لكي أشير ــ وهذه فكرة جديدة في إطار الجغرافية التاريخية ــ إلى واقع الجوار مع الخليج المشترك للشاطئين الإيبيري والموروزي، أي خليج المحيط. ويشكل هذا الأخير بدوره عاملا للتماثل بين معلمين جغرافيين، قادس شمالا وجبل الأطلس جنوبا. وهكذا، فإن أوروزيوس بوصفه لإسبانيا، قد يعلن ــ فضلا عن ذلك ــ عن المماثلة بين الإقليمين المتواجدين غرب الأعمدة بدليل أن زاويتها الثالثة (إسبانيا)، تظل تقابل هنا بجزر قادس وما وراء خليج المحيط جهة الجنوب الغربي المتجسدة في جبل الأطلس[11]. ليس هنالك أي تلميح إلى مواقع الشاطئين المتوسطي أو الأطلسي، ماعدا مركز أبينا Abenna (Septem)، وذلك ربما لإبراز هوية الناحية الشمالية ــ الغربية من موروزيا أو موقع جبل الأطلس القريب من منابع النيل[12]. يتجه هذا الأخير، المرادف لدرا Dara أو نوهول Nuhul، نحو اليسار، ثم ينحدر صوب مصر[13]. ومن المفيد التذكير، في هذا الصدد، بوفاء أوروزيوس لرصيد الجغرافية القديمة، لاسيما ما اقترحته هذه الأخيرة في شأن صلة منابع النيل بالجنوب المغربي، وطن المؤلف الجزر السعيدة

---

(8) أي بطليموس القلودي.

(9) أوروزيوس، **نفس المصدر**، 104، 2، I.

(10) **نفس المصدر**، 7، 2، I.

(11) **نفس المصدر**، 72، 2، I.

(12) **نفس المصدر**، 29، 2، I.

(13) **نفس المصدر**، 31، 29، 2، I.

ما بين جبل الأطلس وجبل هيسبريان Hesperien. ففي هذه الجهة بالذات، يتخذ الشاطيء الغربي الافريقي اتجاها جنوبيا شرقيا، حيث نجد ما بعد قبيلة الأطولول الجيتولية المجموعات الاثيوبية وكذا المحيط الاثيوبي(14). لسنا بعيدين ــ على ضوء الرؤية القديمة ــ من الخليج العربي (البحر الأحمر) بالنسبة لأية مبادرة خاصة بالطواف حول إفريقيا أو لمشروع تحقيق رحلة في اتجاه الهند(15)، ما بعد بحر إيريتريا Erythrée (المحيط الهندي).

وختاما فمن الممكن التركيز على فكرة أساسية، مفادها أن جغرافية أوروزيوس تفتقر إلى المسافات والإحداثيات والجزئيات المختلفة في ميداني المجال والإنسان. وربما يفسر ذلك القصور بانحطاط المدن والأقاليم في عهد عاصر خلاله المؤلف تجزىء الإمبراطورية الرومانية، وعلى الأصح نهاية تاريخها، وبالتالي ــ وباستثناء نهر المالڤا ــ فإن هذه الرؤية قد غضت الطرف عن الطنجية الشرقية والمواقع الحدودية المشتركة مع القيصرية. وبالعكس إنها تثير الانتباه حول أبينا والأعمدة وخليج المحيط دون إغفال الهوية الافريقية لبلد توفر على صلات مع الجزر السعيدة وجيتوليا واثيوبيا.

ويؤكد أوروزيوس بدوره ــ على ضوء التاريخ الإجمالي للجغرافية القديمة ــ أهمية العلاقات بين الشمال والجنوب عن طريق موروزيا ما بين افريقيا العميقة والجنوب الغربي الأوروبي طبقا لما سماه مؤلفنا بمحور سبتونتريــون Septentrion(16).

---

(14) **نفس المصدر**، 92، 2، I.

(15) راجع فيما يخص الهند :

J. Felliozat, «La valeur des connaissances gréco-romaines sur l'Inde» *J.S.*, 1981, p. 97-135.

(16) أوروزيوس، **نفس المصدر**، 104، 2، I.
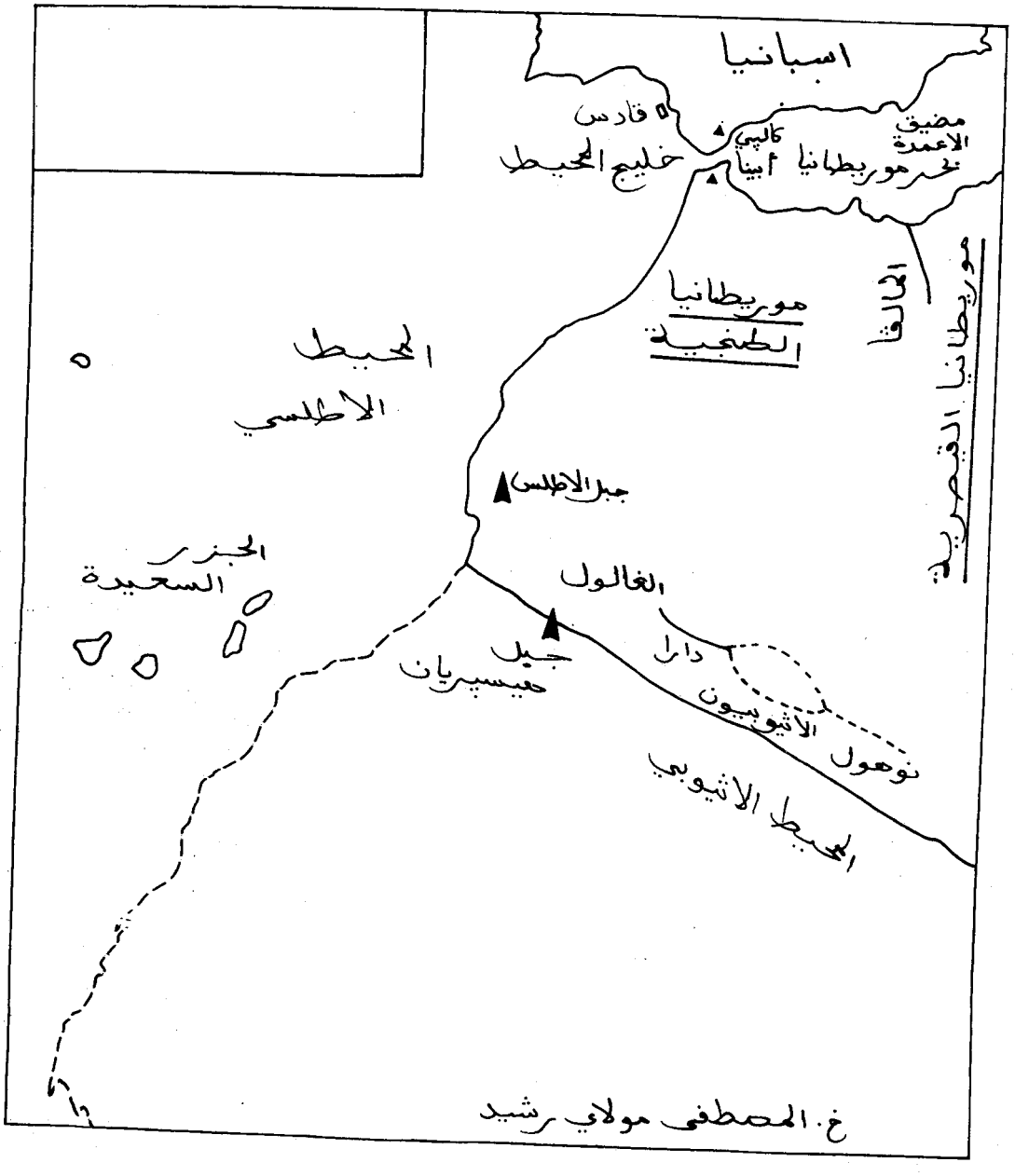
أورزيوس وموريطانيا الطنجية (ق 4م)